المشهد الرابع

ألمانيا

obeikandl.com

obeikandl.com

داكار

التقيت فيليب في المطار بداكار. قبل مغادرتي للندن، كان ألكساندر قد أبلغني بأن فيليب كان الشيف، المعلم. وهو وجيل، كلاهما، كانا يرفعان تقاريرهما إلى فيليب. ولكن حتى لو لم يكن ألكساندر قد أخبرني بذلك، لكنت قد عرفت أن فيليب هذا كان شخصاً ذا أهمية. كان متوسط العمر، ولم يكن في وجهه ما بدا غير عادي. غير أنني استطعت أن أرى على يديه وساعديه ندوباً؛ ندوباً حقيقية من شجارات حقيقية. أعجبني الرجل.

في الطريق إلى الفندق لاحظت شيئاً ـ صوته. علمت أنني كنت قد سمعته، ولكن تذكُّر المكان الذي سمعته فيه تطلب مني عدداً من الدقائق. ثم وجدته: كان فيليب هو الرجل الذي كنت قد تحدثت معه في الليلة التي أعقبت المداهمات، حين كنت في المفوضية على الحدود الفرنسية. كان قد كلمني بلطف بالغ في تلك الليلة، وكان قد ناداني باسمي الأول. تذكرت ذلك بقدرٍ كبيرٍ من الوضوح لأن تلك كانت المرة الأولى التي يكون فيها شخص من الأجهزة، أي شخص من أي أجهزة، على هذا المستوى من اللطف.

في هذا اليوم، اكتفى فيليب بنشر ابتسامة حين سألته عما إذا كان هو الرجل الذي كان قد اتصل بي في تلك الليلة. وبعد عدد من الأشهر كان سيقر بأن حَدْسي كان صحيحاً.

بُعيد وصولي إلى داكار، قام بِلْ كلنتون بشن غارات جوية في السودان وأفغانستان انتقاماً للهجمات على السفارتين. استهدف الأمريكيون قواعد إرهابية قريبة من خوست التي لا تبعد عن خالدان، وجلال أباد سوى بضعة أميال، والقريبة جداً من دارونتا. لم أستطع أن أصدق أن يكون جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) عازماً على إعادتي

إلى أفغانستان بعد ذلك، غير أن فيليب طمأنني أن المهمة كانت قائمة. ألحقني بنادٍ رياضي وعين لي مدرباً شخصياً كي أتمكن من استعادة لياقتي البدنية وطلب مني التنعم بانتظار مبادرة الجهاز إلى وضع خطته موضع التنفيذ. أفاد بأنه كان كثير السفر، ولكنه كان سيتوقف في داكار عدداً من المرات شهرياً للاجتماع معي.

أقمت في فندق فاخر في داكار وكنت أحصل على مبلغ فاحش من المال أسبوعياً. آلاف الدولارات، أكثر مما كنت أحصل عليها في أي وقت من قبل. في البداية لم أفهم. وبالأحرى لم أهتم في الحقيقة. كنت متركزاً على العودة إلى العمل الميداني. من نواحٍ كثيرة، كنت أتطلع نحو أفغانستان بشوق. فبعد نحو عامين من السأم في إنجلترا، بدا النشاط المكثف للمعسكرات بالغ الإثارة. كذلك كنت أتطلع بشوقٍ إلى رؤية ابن الشيخ والآخرين بعد كل هذه المدة.

وعملي جاسوساً، هو الآخر، بدا الآن أكثر إلحاحاً. أخيراً كان العالم قد بدأ يهتم بأفغانستان. في وقتٍ سابق من السنة كان بن لادن قد أصدر فتواه ضد الولايات المتحدة، وكان الغرب قد أدرك من الهجمات على السفارتين مدى خطورة التهديد في الواقع. أخيراً، كان الناس سيضطرون إلى الاهتمام بما كان يحصل داخل المعسكرات.

غير أن فيليب ما لبث، بعد شهرين من وصولي إلى داكار، أن أبلغني بأن المهمة كانت قد شُطبت. لم أُفاجأ مئة بالمئة. منذ المرة التي كان جيل قد ذكرها لي في لندن، راودني الشك حول احتمال تحقق المهمة الفعلي. إلا أنني كنت، مع ذلك، راغباً في معرفة السبب.

'لقد اكتشفوا حقيقتي، أليس كذلك؟' نادراً ما استطعت سحب أي معلومات من فيليب، غير أنني كنت أتمكن من اكتشاف مدى إصابتي للهدف من خلال المبادرة إلى تقديم اقتراح معين. إلا أن تعابير وجهه لم تشِ بشيء هذه المرة.

قال لي: 'هناك جميع أنواع الأسباب. بعضها يخصك أنت، وبعضها يخص أشياء أخرى في هذا العالم الواسع.'

كان ذلك أقصى ما كنت سأتوصل إليه تفسيراً لما حصل، لإلغاء المهمة.

بعد بضعة أيام، أعطاني فيليب جواز سفري المغربي، واستعاد جواز السفر الفرنسي الذي كان جيل قد زوَّدَني به في باريس. الخاتم الأخير في الجواز المغربي كان ذلك الذي حصلتُ عليه في داكار قبل أكثر من عامين، قبل ذهابي إلى لندن. كان استعمال الجواز مستحيلاً. كنت سأتعرض للاعتقال الفوري في مطار داكار إذا ما تم اكتشاف بقائي في البلد كل هذه المدة. غير أن فيليب طمأنني حين عبرت عن اعتراضي. كان الجهاز (جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي DGSE) سيؤمن لي جوازاً جديداً في غضون أسبوعين.

بالطبع، لم يظهر جواز السفر في أسبوعين، أو في أسبوعين آخرين بعدهما. كان فيليب يطمئنني إلى أن هذه لم تكن سوى عمليات احتجاز ثانوية، وإلى أن جواز السفر كان سيصل في أي يوم. ظل فيليب يزودني بكميات عبثية سخيفة من المال كل أسبوع.

ما لبث الكيل أن طفح معي وأبلغتُ فيليب بأنني كنت راغباً في العودة إلى ألمانيا للزواج إذا لم أكن متوجهاً إلى أفغانستان. كنت قد طلّقت الجهاز. ولكن الجهاز لم يكن قد طلَّقني وأطلق سراحي، وكان فيليب يحاول إقناعي بتغيير رأيي: في كل لقاء لنا كان يسألني عما إذا كنت متأكداً من رغبتي في الزواج من فاطمة. وفي كل مرة كنت أؤكد له تصميمي. أخيراً، قالها صراحةً، في أحد الأيام: 'أعتقد أنك تقترف خطأ.'

'ما الذي تعنيه؟' سألت.

'أعتقد أنك ستتزوج وتتقاعد ومن ثم، بعد ثلاثة أشهر، ستشتاق إلى عملك وستكون راغباً في العودة.'

'أستطيع الجمع بين الأمرين. أستطيع أن أعمل وأنا متزوج.'

هز فيليب برأسه. قال: 'لا. ليس أي عميل متزوج إلا نصف عميل.' ثم ابتسم ونظر إلى خاتم زواجه. 'ثق بي، أنا أعرف.'

انتظرت شهوراً في داكار. وكل ما رأيته كان فيليب يطمئنني إلى أن الجهاز كان عاكفاً على ترتيب الأمر مع الألمان فيما يخص حياتي الجديدة هناك. غير أن شيئاً لم يتحقق.

بعد خمسة أشهر، كنت قد اكتفيت وشبعت وعوداً. كان فيليب قد أبدل هاتفي الجوال البريطاني بآخر موصول مع الجهاز (وإن لم يقر بذلك قط). استخدمت الهاتف للاتصال مع فاطمة.

قلت لها: 'سئمت انتظارهم. سأهتدي إلى طريقة تمكّنني، بوسائلي الخاصة، من الوصول إلى ألمانيا.' كانت تلك الطريقة الوحيدة للضغط على الجهاز. كنت أعرف أن الأخير لم يكن يريد خروجي من تحت سيطرته وتحكمه؛ لم تكن لديه أي فكرة عما كنت سأفعله. وقد كان الجهاز يعرف أنني، إذا ما حزمت أمري، قادر على التسلل إلى أوربا بوسائلي الخاصة دون أي مساعدة. ألم أكن قد نجحت، آخر المطاف، في اختراق معسكرات التدريب الأفغانية دون مساعدة الجهاز والأجهزة كلها؟

لذا لم أُفاجأ قط حين جاءني فيليب في اليوم التالي.

ناشراً على وجهه ابتسامة عريضة بادرني: 'أخبار سعيدة! مبروك! نجحنا في حل جميع العقد. ستطير إلى ألمانيا في غضون يومين.'

لم أفهم إلا متأخراً كثيراً ما كان الجهاز يحاول فعله في داكار: كان يريد منعي من الزواج. كان ذلك هو السبب الكامن وراء المبالغ الكبيرة من المال. كان الجهاز يريد أن يبين لي مدى سحر وجاذبية حياة أي جاسوس. سلسلة لا نهائية من المدن الغريبة، من المطاعم الفاخرة الباهظة، من الفنادق الخيالية.

بالطبع، لم تكن الجاسوسية فاتنة، في أي وقت من الأوقات، بالنسبة إلي. كنت قد نمت على الأرض العارية في أفغانستان مدة عام كامل دون تناول أي طعام سوى العدس والخبز "البائت". وفي لندن عشت في شقة بالكاد متسعة لجسدي. إلا أنني لم آبه قط لكل ذلك.

تلك هي الحقيقة التي لم ينجح الجهاز قط في فهمه: حقيقة أن العملية لم تكن، في أي وقت من الأوقات، من أجل المال بالنسبة إلي. كان جيل قد افترض ذلك، وهو ما جعله، منذ البداية الأولى، لا يصدق أنني كنت سأعيد مبلغ الفرنكات الخمسة وعشرين ألفاً إلى طارق. كان قد وقع في هذا الخطأ ثانيةً في استانبول حين توهم أنه قادر على جعلي أختفي مقابل خمسة عشر ألفاً من الدولارات. وها هو ذا فيليب نفسه كان الآن مصراً على اقتراف الخطأ نفسه.

بالطبع، كنت أحب المال، وأعرف كيف أنفقه عندما يكون متوفراً. كنت أستمتع بالمطاعم الفاخرة، وفنادق النجوم الخمسة الفخمة. غير أنني لم أكن بحاجة إليها. هذه الأشياء لم تكن هي الأشياء التي تحركني وتدفعني.

وما الذي كان يدفعني إذن؟ أفترض أن أشياء متباينة كانت تحركني في أوقات مختلفة. في البداية، حين كنت في بلجيكا، كنت بحاجة إلى أن يقوم جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) بتوفير الحماية لي ولعائلتي. لم أتعاون مع الجهاز إيماناً مني بما كان يفعله، بل خوفاً من التعرض للقتل. غير أن الأمر ما لبث أن تغير مع مرور الزمن، مع اطلاعي على المزيد من

المعلومات عن الجماعة التي كنت قد تورطت معها، عن الجماعة الإسلامية المسلحة. عندئذٍ أصبحت رسالة الجهاز رسالتي.

في إحدى المحطات خلال فترة وجودي في المعسكرات، كانت رسالتانا قد تفارقتا من جديد. بالطبع، بقينا متفقين على أشياء كثيرة: لم نكن نريد رؤية الأبرياء يُقتلون، سواء في عربات مترو باريس أو في إحدى السفارات بنايروبي. غير أنني ما لبثت، بعد عودتي من أفغانستان، أن اكتشفت عجزي عن منع ذلك. حتى إذا استطعت المساعدة على وقف إحدى الهجمات، كتلك المؤامرة التي كانت تستهدف كأس العالم، فإن من شأن هجمة أخرى أن تكون موشكة على الوقوع. فهذه الهجمات. كانت حتمية طالما بقي الغرب رافضاً السعي إلى فهم عقل المسلم، منطق الجهاد. كنت قد حاولت تفسير ذلك للمسؤولين عني غير مرة. كنت قد حاولت تفسير وشرح ما كنت قد رأيته وسمعته وشعرت به في تلك المعسكرات. غير أنهم لم يكونوا مستعدين لأن يسمعوا كلامي.

قبل يوم واحد من مغادرتي، شَرَح لي فيليب ما كان سيحصل في ألمانيا. أفادني بأن ضابط الارتباط الفرنسي كان سينتظرني في المطار، ثم يساعدني في إيقافي على قدمي في ألمانيا. كنت سأقول للألمان، للسلطات الألمانية، إنني جزائري هارب من الحرب طالباً حق اللجوء السياسي. كنت سأحصل على هويتي الجديدة، والأجهزة الألمانية كانت ستساعدني في بدء حياة جديدة. كنت سأتزوج وأكون آمناً.

كنت قد بدأت أحب فيليب خلال الأشهر الخمسة التي قضيتها في داكار. أحببته لأن كان بالغ اللطف معي على الهاتف في تلك الليلة بعد المداهمات في بروكسل. وأحببته لأنه كان لطيفاً أيضاً في داكار، جرياً على عادته. أستطيع أن أقول إنه آمن بي، صدَّقَني، أراد أن أبقى عميلاً. أعتقد أنه كان مؤمناً حقاً بأن هذه هي الحياة التي فُصِّلتُ لأعيشها.

في ليلتي الأخيرة، أخذني فيليب إلى مطعم أنيق خارج المدينة. كنت في مزاج رائع لأنني كنت أتطلع إلى الحياة الجديدة التي كنت موشكاً على الشروع فيها. أحسست كما لو كنت محتفلاً، طلبت طَبَق اللانغوستين (القريدس)، البند الأغلى على القائمة.

اعترض فيليب قائلاً: 'لا، لا. دعك من اللانغوستين. يجب أن تجرب الغروبر (سمك الأخفس) بدلاً منه. إنه أسطوري هنا.'

على الفور عرفت شيئاً عن فيليب، وضحكت.

'هذا هو المكان الذي تدعو إليه عشيقاتك، أليس كذلك؟' وأنا أنظر إلى ما حولي بدا لي الأمر واضحاً وضوح الشمس. الشموع، الموسيقا الناعمة.

بدا فيليب مصدوماً أولاً، ثم ضحك أيضاً، وكنت أعرف أنني قلت الحقيقة.

هز برأسه وابتسم قائلاً: 'أنت وغد وابن عاهرة فعلاً' وظل يضحك.

في تلك اللحظة بالذات، أعتقد أن كلاً منا فهم الآخر فهماً كاملاً.

ألمانيا

كان فيليب قد أعاد لي جواز سفري الفرنسي من أجل الرحلة إلى ألمانيا مما مكّنني من اجتياز الجمارك مثل النسيم حين وصلت إلى فرانكفورت. التقيت المسؤول، أوليفييه، خارج مكان استلام الحقائب. كان في أواخر عشرينياته، وبدا غير عادي إلى حد كبير. كان أحد أكثر الأوروبيين الذين سبق لي أن رأيتهم لياقة بدنية. كان ذا وجه جميل وبالغ الأناقة. لم يكن مرتدياً أي قطعة استثنائية، فقط سروال جينز وسترة فضفاضة، غير أن ملابسه كانت بديعة جداً ومفصلة تفصيلاً مثالياً. كان ضابط الاستخبارات الوحيد، ممن سبق لي أن عملت معهم، الذي بدا فعلاً شبيهاً بجيمس بوند.

أعطاني أوليفييه توجيهات دقيقة حول الخطوة التالية. كان علي أن أذهب إلى مخفر الشرطة وأقدم نفسي بوصفي لاجئاً. كنت سأحصل على بعض الأوراق من المخفر فآخذها إلى مركز قريب متخصص بإجراءات قبول اللاجئين. كنت سأُمضي الليل في المركز، ومن ثم كانوا سينقلونني إلى مركز لإقامة طالبي اللجوء. هناك كنت سأقابل عميلاً ألمانياً، كان سيتولى قيادتي عبر العملية.

قبل إنزالي من السيارة، أعطاني أوليفييه بعض الملاحظات الموجزة لقصة رحلتي إلى ألمانيا. كنت سأقول للبوليس كما لجميع الآخرين إنني كنت قد سافرت من الجزائر إلى تركيا، ثم نجحت في شق طريقي إلى قلب أوروبا عبر بلغاريا، رومانيا، هنغاريا، سلوفاكيا، وجمهورية التشيك. زوَّدني بأوراق نقدية من عملات هذه البلدان لاستخدامها دليلاً داعماً لقصتي، لإثبات صحة مروري بهذه البلدان.

قبل المغادرة، أوصاني أوليفييه بألا أقلق حول أي شيء. فالجهاز السري الألماني كان قد خطط لمجيئي. أعطاني رقم هاتف يمكنني استخدامه للوصول إليه، وأخذ جواز سفري الفرنسي. ثم انطلق بسيارته مبتعداً.

ذهبت إلى مخفر الشرطة تنفيذاً لتوجيهات أوليفييه، ومنه إلى مركز القبول للتسجيل. أبلغني الموظف في المركز بأن حافلة كانت ستقلني صباح اليوم التالي إلى مدينة آيزنهوتنشتات الواقعة على الحدود البولونية.

لم أكن ناوياً أن أُمضي الليل في المركز، فحجزت غرفة في أحد فنادق مركز فرانكفورت. كذلك لم أرغب في الذهاب بالحافلة فعمدت إلى قطع تذكرة سفر بالقطار من فرانكفورت إلى آيزنهوتنشتات.

آيزنهوتنشتات هذه مدينة قميئة من مخلفات الحقبة الستالينية على الحافة الشرقية لألمانيا. وعلى بعد بضعة كيلومترات من البلدة، ثمة قاعدة عسكرية كانت تؤوي الجيش الأحمر ذات يوم. إنها الآن مركز احتجاز لطالبي اللجوء.

سجلت اسمي بالاستناد إلى الأوراق التي حصلت عليها في فرانكفورت. بقيت ست ليالي دون أي اتصال من الأجهزة. كان الوضع باعثاً على القنوط. كان المكان مزدحماً بلاجئين قادمين من بعض أمكنة الكرة الأرضية الأكثر بؤساً: من أفريقيا، سري لانكا، أفغانستان. كانوا على الطرقات لأسابيع متواصلة كي يصلوا إلى هنا، وكانوا وسخين.

هؤلاء كانوا أناس سحقهم اليأس. كانوا قد تخلوا عن كل ما كان لديهم من أوطان من أجل القيام بهذه الرحلة. كثيرون لم يكونوا، بالطبع، هاربين من الحرب أو الاضطهاد؛ كانوا هاربين من المجاعة أو الفقر المدقع الكاسر للظهر. وبالطبع فإن هؤلاء كانوا هم أولئك الذين كان يجري التخطيط لإعادتهم. فالمعاناة الرهيبة لم تكن أساساً لاكتساب حق اللجوء السياسي.

في النهاية، لم يكن مهماً في الحقيقة أن تتم معرفة أسباب وجود هؤلاء هناك، لأن أكثرهم كانوا سيعادون إلى الأمكنة التي جاؤوا منها. أعداد كبيرة منهم كانت ستموت نتيجة لذلك. كنت أعرف مدى إهمال الأوروبيين لطالبي اللجوء السياسي، مدى اعتراضهم على تمكين ذوي البشرة السمراء هؤلاء من عبور حدودهم.

كان الحزن كابوساً داخل المركز، وكنت شديد الرغبة في الخروج. اكتشفت أنني كنت أستطيع الحصول على تصريح مرور أغادر به لتمضية بضع ساعات في المدينة. غير أن أحداً من الآخرين لم يرغب في مرافقتي. بعد بضعة أيام سألت أفغانياً عن سبب بقاء الجميع داخل المركز. أفادني بأن الناس كانوا مرعوبين من الخروج. ثمة كان حليقو الرؤوس في المدينة كلها ممن دأبوا على استهداف اللاجئين مهينينهم وضاربينهم بلا رحمة بل ومجهزين عليهم قتلاً أحياناً.

في أي يوم محدد، هناك في جميع أرجاء العالم آلاف الناس الذين يصلون ملتمسين من الله فرصة العيش في بلدٍ كهذا.

لقائي الأول مع كلاوس كان في آيزنهوتنشتات. كان لقاء كارثياً مئة بالمئة. جاء أحد الحراس ليجلبني من المهجع جلباً ثم يدخلني إلى أحد المكاتب حيث كان كلاوس بانتظاري:

'غوتن تاغ. ماين نيم إست كلاوس. فِسَنْ زي فير إش بين؟'

بالطبع، كنت أعرف الألمانية ـ كنت قد تعلمتها من فاطمة ـ غير أن الطريقة أثارت حفيظتي على أي حال. فكرت بجميع اللاجئين في المركز وتصورت حالهم، وهم في مواجهة هؤلاء الأوروبيين المتعجرفين وبلغة غريبة عنهم، هم عاجزون عن فهمها.

قلت: 'آسف. هل تستطيع تكرار ما قلته بالإنجليزية؟'

رد بعصبية: 'أنا كلاوس. هل تعرف من أكون؟'

من الواضح أن كلاوس كان شوكة واخزة بأي لغة.

'نعم، أعرف من تكون. أنت من الجهاز السري الألماني.'

'صحيح' قال. كانت ثمة غطرسة أمقتها على وجهه. 'الآن سترد على بعض الأسئلة.'

طفح الكيل معي. كنت منتظراً منذ أسبوع في هذا الجُحْر الجهنمي. لم أكن قادراً على تحمل هذا الألماني المرعب، المتعالي.

'لن أرد على أي أسئلة هنا. إذا كنت تريد أن تطرح علي أسئلة، فبإمكاننا أن نفعل ذلك بعد العودة إلى هناك، إلى ألمانيا الغربية.' لم أكن مستعداً لتمكينه من التحكم بي، وقد كان متمكناً فعلاً طالما نحن في مركز الاحتجاز. تلبد الجو

بتهديد مكتوم: كان قادراً على تركي هنا إذا لم أطع أوامره. غير أنني كنت أكثر خبرة منه. نهضت لأغادر المكان.

سأل: 'ما الذي تفعله؟'

'أغادر المكان.'

'لا تستطيع المغادرة قبل أن تحصل على أوراقك.'

'لست بحاجة إلى أي أوراق. أستطيع السفر إلى حيث أريد.' ثم دونت رقم هاتفي الخليوي وقدمته إلى كلاوس قائلاً: 'اتصل معي خلال بضعة أيام. سنجد مكاناً آخر للكلام.'

غادرت المركز واستقلّيت سيارة أجرة إلى محطة القطار. اشتريت تذكرة إلى كولونيا حيث كانت فاطمة مقيمة. غير أني ما إن استقريت على مقعدي في القطار حتى رن جرس هاتفي.

كان المتصل هو كلاوس: 'يجب أن تعود فوراً. لابد لك من الحصول على أوراقك.' وأضاف أنه كان يتعين علي أن أمر بهذه المراحل مثل جميع اللاجئين الآخرين إذا كنت راغباً في تثبيت هويتي.

لم أكن مستعداً لقطع أي مزيد من المراحل. تذكرت ما كان جيل قد قاله لي في اليوم الأول للقائنا: إذا كنت تريد كل هذه الأشياء فسيتعين عليك أن تخدمنا أكثر. كنت قد خدمت أكثر - أكثر مما توقعه أي منهم. كنت قد أمضيت ست سنوات في خدمة هؤلاء البشر. كنت قد خاطرت بحياتي غير مرة. كنت قد توغلت في قلب هذا التهديد الكوكبي الذي باتوا الآن يطلقون عليه اسم القاعدة. وهل ثمة ما هو أكثر.

'لا' قلت لكلاوس. 'أنا لن أفعل ذلك. الحصول على الأوراق اللازمة لي هو من مسؤولياتك أنت. تدبر أمرك!' وقطعت الخط.

التقيت كلاوس ثانية بعد أسبوعين في فندق بمطار هانوفر. جاء إلى هناك مع رجل آخر يدعى ماتياس. كان جو الغرفة مشحوناً بالتوتر سلفاً حين وصلت؛ فور شروع كلاوس وماتياس في الكلام اتضح أنهما لم يكونا معجبين أحدهما بالآخر. ولأن ماتياس لم يكن معجباً بكلاوس وجدتني معجباً بالأول مباشرة.

في ذلك الاجتماع، كما في اجتماعات كثيرة أعقبتْ، اتضح بجلاء أن الألمان لم يكن لديهم أي خطة بالنسبة إليَّ على الإطلاق. لم يكن ثمة أي سبيل للحصول على وظيفة محترمة دون أوراق. ظل كلاوس وماتياس دائبين على تقديم الوعود بتلك الأوراق، ولكن الوعود بدت على الدوام غير قابلة للتحقق. كذلك لم يكن أي سبيل لزواجي، وهو ما أحبطني أكثر. لم نكن قادرين على العيش معاً دون زواج. في تلك الأثناء كنت أقيم في شقة صغيرة كانت فاطمة قد استأجرتها باسمها.

التقيت أوليفييه بضع مرات أخرى خلال أشهري الأولى في ألمانيا. كرر لي مرات كثيرة أنه كان عاجزاً عن فعل أي شيء. كان يتعين علي أن أعتمد على كلاوس وماتياس طالما كنت موجوداً في ألمانيا. كان جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) قد نسق كل شيء مع الألمان. غير أن شيئاً لم يبد منسقاً بنظري. فكلما أتيت على ذكر اسم أوليفييه على مسامع كلاوس وماتياس كانا يهزان برأسيهما ويطلبان مني ألا أتحدث عنه. لم يكونا مستعدين للاعتراف بوجود أي نوع من الاتفاق النافذ بين الجهازين الألماني والفرنسي. بالطبع، هما لم يقولا ذلك صراحة، غير أن رغبتهما في قابلية الإنكار الكلية كانت واضحة. كذلك لم يكونا مستعدين لتحمل مسؤوليتي.

كنت بحاجة إلى المال. كنت معتمداً في معاشي على دخل فاطمة الضئيل وقد أغاظني ذلك. كنت بحاجة إلى المال لتسديد أجرة شقتي وثمن طعامي. كذلك كنت بحاجة إلى توفير بعض المال لحفل زفافي. غير أنني كنت عاجزاً عن الكسب وحدي، دون أوراق. كان من شأن الحصول على عمل أن يكون بالغ

الصعوبة حتى بعد توفر الأوراق: فأنا في الثانية والثلاثين من العمر ولم يكن قد سبق لي أن شغلت وظيفة، أي وظيفة. أقله أي شيء أستطيع تدوينه في السيرة الذاتية الموجزة.

ثمة كانت طريقة وحيدة لكسب المال: كان عليّ أن أعمل جاسوساً. في البداية بدت الفكرة كما لو كانت فكرة جيدة. من المؤكد أن ذلك هو ما كان الألمان يتوقعونه مني. غير أنه ما لبث أن اتضح أنهم لم يكونوا متوفرين على أي وظيفة حقيقية لي. تم إرسالي إلى مركز اجتماعي إسلامي في مدينة أوبرهاوزن ذات الكتلة السكانية الشمال أفريقية الكبيرة الواقعة على بعد نحو سبعين كيلومتراً من كولونيا. صرت أذهب إلى هناك كل يوم جمعة.

عند اجتماعي مع ماتياس وكلاوس بعد كل رحلة، لم يكونا يقومان ولو بعرض بعض الصور علي. كانا يطرحان سؤال: 'ما هي انطباعاتك؟' انطباعاتي كانت بالغة البساطة: ثمة كانت مجموعة من المراهقين المغاربة الذين كانوا يلعبون الرياضة معاً ويدرسون القرآن. لم يكن هناك أي شيء يدعو للقلق.

كان الوضع أسوأ بكثير حتى من عملي في إنجلترا. كانت الوظيفة باعثة على قدرٍ كبير من السأم وعديمة الجدوى كلياً. غير أن المشكلة الحقيقية تمثلت بعدم قدرتي على القيام بها. كنت انفق مئات الماركات الألمانية شهرياً لمجرد تسديد قيمة الوقود الذي تحرقه سيارتي في الذهاب والإياب، في حين أن الألمان لم يكونوا يدفعون لي أي مبلغ ذي شأن. كانوا مطمئنين إلى عدم اضطرارهم لكوني عالقاً في المصيدة. لم أكن أملك أي أوراق، وبالتالي لم أكن قادراً على العمل لدى أي جهة أخرى.

بعد بضعة أشهر، كنت موشكاً على فقدان عقلي. أبلغت الألمان بحاجتي إلى المزيد من المال، غير أني لم أحصل عليه. بدا لي كما لو أن كلاوس كان لا يزال مصراً على معاقبتي بشأن ما كان في لقائنا الأول. كان يريدني أن استجدي

بضعة ماركات إضافية، ثم يستمتع هو برفض الطلب. كنت أحتقره. وما أكثر ما كنا نتصادم!

حاول ماتياس أن يمد يد المساعدة كلما استطاع، غير أنه بدا عاجزاً هو الآخر. مرة، ونحن وحدنا، شرح لي ماتياس إنهما، هو وكلاوس، كانا يعملان في قسمين مختلفين من أقسام الجهاز، وأنه لم يكن مخوَّلاً بالتدخل. أحياناً كان يعطيني مبالغ من جيبه الخاص. من الواضح أنه كان يشعر بالعجز مثلي.

أخيراً، حدث شيء سار. بعد تسعة أشهر في ألمانيا، حصلت على إذن الزواج. كان قد مضى نحو ثلاث سنوات على لقائي فاطمة في باريس. ومنذ ذلك اليوم، لم أفكر بها ولو لمرة واحدة بوصفها مجرد صديقة أو عشيقة. كانت زوجي المستقبلية. والآن كان المستقبل قد وصل أخيراً.

بعد صدور الأوراق ببضعة أيام، التقيت أوليفييه. كنت بحاجة إلى مال لتغطية نفقات الزفاف، وكنت سأحصل عليه من كلاوس. كنت أستحقه، قلت لأوليفييه. كان جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي حي اس إي DGSE) قد وعد بمساعدتي على الزواج، وها أنا الآن كنت بحاجة إلى هذه المساعدة.

التقينا ثانية في غرفة أحد الفنادق بعد بضعة أيام. كان أوليفييه هناك سلفاً قبل وصولي، وجدته جالساً خلف إحدى الطاولات. كان ثمة مغلف سميك أمامه؛ كان المغلف مفتوحاً. داخله استطعت أن أرى الخضرة المميزة للدولارات الأمريكية. جواز سفري الفرنسي، هو الآخر، كان على الطاولة. ومعهما كانت ثمة تذكرة سفر على أحد الخطوط الجوية.

جلست مقابل أوليفييه.

سألني: 'هل أنت متأكد من أن هذا ما تريد أن تفعله؟'

'ماذا تعني؟'

'هل أنت واثق من أنك تريد أن تتزوج؟'

'بالطبع. أنا واثق.'

قَطَّب أوليفييه حاجبيه. قال: 'أنت جاسوس. لا أعتقد أنك مفصَّل بما يتناسب مع الحياة الزوجية. سوت تمل.'

قلت له: 'عاكف أنا على التفكير بهذا منذ ثلاث سنوات. لم يكن الأمر قراراً متعجلاً. أنا أعرف ما أريده.'

أطلق أوليفييه زفرة. قال: 'يا للخسارة! أعتقد أننا كنا قادرين على اجتراح مآثر معاً.' بدا محبطاً حقاً. مرت فترة صمت طويلة بيننا وهو ينتظر أن أبادر إلى تغيير رأيي.

حركت رأسي وقلت: 'أنا أعرف ما أفعله.'

ابتسم أوليفييه ابتسامة باهتة. قال: 'حسناً، إذن. من الأفضل، إذن، أن أزوِّدك ببعض المال لحفل زفافك.' إلا أنه لم يمرر المغلف الموجود على الطاولة إلي. بدلاً من ذلك، انحنى على حقيبته وسحب مغلفاً أرق بكثير. فتحت المغلف لأرى ما بداخله. ثمة كانت رزمة رقيقة من الماركات الألمانية.

ثم نهض أوليفييه استعداداً للمغادرة، حَذَوْتُ حَذْوَه. مد يده نحوي، لكنه ما لبث أن سحبها فيما كنت موشكاً على مد يدي للمصافحة، قائلاً: 'انتظر، كدت أنسى. معي شيء آخر لك.' اختار شيئاً من حقيبته وقدمه إلي.

كان الشيء هو دفتر ملاحظاتي في دارونتا. كان الدفتر ذا سماكة مفرطة كادت تُضحكني. كانوا عديمي الرحمة حقاً. كان جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) قد استنتج أخيراً أن أيَّ مبلغ من المال لم

يكن قادراً على إقناعي بالبقاء. وكان بالتالي قد قرر إجباري على البقاء. كانت الشرطة تنتظرني في الخارج. كنت متأكداً من ذلك. لو حملت ذلك الدفتر وخرجت به لبادرت الشرطة إلى اعتقالي فور خروجي من الباب. كنت إرهابياً: الدفتر برهان ساطع؛ كتابي بيميني. كان الجهاز سيسجنني لسنوات. لم أقرر، بالطبع، العودة إلى العمل لدى جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE).

نظرت إلى الدفتر، ومن ثم إلى أوليفييه. 'يبدو أنك تحب المزاح.'

وبعد ذلك غادرت المكان.

بعد ذلك بقليل تزوجت.

بعد الزفاف ببضعة أيام، التقيت ماتياس في أحد المقاهي. تحدثنا قليلاً، وهنأني. ونحن نغادر المقهى ناولني مغلَّفاً. قال: 'أحدهم طلب مني إيصال هذا إليك.' لم يقدم مزيداً من الشرح.

فتحت المغلف. كانت في داخله صورة وحيدة. صورة لي مع فاطمة من اليوم الذي أعلَنّا فيه خطبتنا رسمياً. كنت أرتدي طَقْماً وهي ثوباً، وكنا، كلانا، طائرين من الفرح وغارقين في بحر من الضحك كالمجانين. كانت صورتي المفضلة لكلينا معاً، غير أنني كنت قد تركتها في لندن مع أشيائي الأخرى عندما تواريت عن الأنظار بعد تفجيرات السفارتين مباشرة. لا شيء من تلك الشقة كان قد أُعيد إليّ، وكنت قد افترضت استحالة رؤيتي للصورة مرة أخرى.

كانت الصورة هدية زفافي من فيليب. كنت متأكداً من ذلك. تلك كانت طريقته في جعلي أرى أنه كان، بقطع النظر عن كل الأشياء الأخرى، قد وفى بهذا الجزء من الوعد.

الآخرة

لم يفوا قط بأي من الوعود الأخرى.

واصلت العمل مع الألمان بضعة أشهر بعد زفافي، غير أن الوضع بقي على حالة دون أي تحسن. ظلوا يعطونني ما هو أقل من الكفاف، رغم أنني كنت قد أصبحت زوجاً ملزماً بالإعالة. مع مرور الزمن زوّدوني بجواز سفر باسمي الحقيقي. لا هوية جديدة، لا قصة خلفية من شأنها أن تمكنني من اجتراح حياة جديدة لي. تلك كانت، بالطبع، فِعْلة كلاوس. كان الأخير مصراً على التحكم بي، على معاقبتي.

بعد بعض الوقت أحالني كلاوس وماتياس على مسؤول جديد، شاب يدعى جورج. غير أنني كنت منهار المعنويات عاجزاً عن البدء من جديد، فبادرتُ جورج في أول لقاء لنا إلى إبلاغه برغبتي في ترك العمل. لم يفاجأ قط؛ من الواضح أنه كان قد سمع كل شيء عن علاقتي الكارثية مع كلاوس. لم يحاول، ولو مجرد محاولة سطحية، إقناعي بالاستمرار.

بقي جورج جالساً حيث هو لبضع دقائق وهو يهز رأسه. ثم قال: 'ليت هذا لم يحدث! هذا ليس صحيحاً.' استطعت أن أرى أنه كان شديد التأثر. ثم مد يده إلى جيب سترته. سحب علبة سجائر وقدمها لي.

دُهشت. 'ما معنى هذا؟' سألت.

رد علي جورج بابتسامة حزينة، لطيفة قائلاً: 'أشعر بأن علينا أن نعطيك شيئاً. غير أنني لا أملك غير هذه.' تقاسَمْنا الضحك.

التقيت ماتياس بعد بضعة أسابيع. كان حانقاً أكثر منه حزيناً. قال: 'يجب أن توكّل محامياً. ما تعرضتَ له ظلم.'

صُعقْت وأنا أسمع ضابطاً في جهاز سري ينصحني بإقامة دعوى على جهازه بالذات. ولكن، ما الذي كان يمكن لأي دعوى قضائية أن تحققه على أي حال؟ لم أكن أملك برهاناً على أي شيء. فالجواسيس لا يبرمون عقود عمل.

أجَبْتُه: 'لست في الحقيقة واثقاً من أن من شأن ذلك أن يتمخض عن تحقيق شيء. أنا لا أعرف حتى كيف أهتدي إلى محامٍ.'

قال: 'أنا أعرف محامياً.' دَوَّنَ اسماً ورقم هاتف على ورقة وناولنيها قائلاً: 'إنه جيد جداً. يجب أن تتصل به.'

لم أتصل بالمحامي قط، غير أني التقيت ماتياس مرة أخرى بعد بضعة أسابيع. هذه المرة نصحني بطَرْق باب الإعلام والصحافة. زوَّدَني بعناوين من ينبغي أن ألوذ بهم، ورسم مخططاً لما يتعين عليَّ أن أقوله.

أيقنت أن محاولات كانت جارية على قدم وساق لتوريطي في المزيد من الدسائس؛ أثار الأمر اشمئزازي وارتيابي. بدأت أطرح الأسئلة. ببطء ما لبث ماتياس أن أماط اللثام عن الحقيقة: كان كلاوس مكروهاً من الجميع. كانوا يعرفون أنه مشكلة غير أنه لم يكن ثمة أي شيء يستطيعون فعله لأنه كان مفروضاً عنوة على الجهاز من قبل أحد أعضاء البوندستاغ (البرلمان الألماني). تمثلت الطريقة الوحيدة للخلاص منه بفضحه على الملأ. عن طريق دعوى قضائية مثلاً، أو ضجة إعلامية محرجة.

حاول ماتياس عدداً من المرات لتجنيدي في معركته، غير أني بقيت لامبالياً.

سألني غير مرة: 'ألا تريد أن تروي قصتك؟ ألا ترغب في إطلاع الناس على ما اقترفه من ذنب؟'

وكنت أجيبه: 'اطمئن. سأروي قصتي. ولكن ليس الآن. ولا بهذه الطريقة.'

ها أنا ذا قد رويت قصتي الآن. لماذا الآن؟

أظن أن دافعي الرئيسي، لدى شروعي في الكتابة، كان متمثلاً بالغضب في المقام الأول. كنت قد عشت في ألمانيا مدة خمس سنوات دون أوراق ثبوتية، وأنا أشتغل في أكثر الأعمال التي يمكن تصوُّرُها إذلالاً وحطاً للكرامة. عملت على خطوط التجميع. عملت في تنظيف التواليتات. عملت عند أرباب عمل كانوا يعاملونني كما لو كنت قذارة لأنني أجنبي، عربي. ومهما اشتغلت لم أكن أستطيع كسب ما يكفي لإعالة زوجي. مازلت أعتمد على دخل فاطمة.

ماتياس كان محقاً: ما حصل لي كان خطأ. تخليت عن كل شيء في النهاية. لسنوات طويلة بقيت راغباً في فضح الطرفين: الألمان وجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) غير أنني لم أفعل لأنني خفت على فاطمة. ومازلت خائفاً. إلا أنني ما لبثت أن أدركت أنني كنت سأخسرها في جميع الأحوال. كان الوضع بالغ الصعوبة بالنسبة إليها. ليس سهلاً على أي امرأة أن تعيش مع رجل دون ماضٍ. جُل الوقت لا أستطيع حتى استخدام اسمي. لم يسبق لزوجي أن التقت أهلي، ولا تستطيع أن تخبر أهلها بأصلي وفصلي. يتعين عليها أن تكذب عند الكلام عني مع صديقاتها. متكتّمان نحن ومتخفيان كل الوقت.

هذه الحياة كانت عبئاً أثقل من أن يطاق بالنسبة إلينا، وكادت أن تنسف الجسر القائم بيننا. كلانا نعرف أنني أعرِّض حياتنا كلينا للخطر عبر نشر هذا الكتاب. إلا أننا لا نملك أي حياة ذات شأن لنخسرها.

غير أن هناك سبباً آخر وراء اعتزامي رواية قصتي الآن. ولعله سبب حتى أكثر أهمية: لقد تغير العالم تغيراً مسرحياً مثيراً منذ عام 2000 حين خلعت ثوب الجاسوسية، حين خرجت من حياتي بوصفي جاسوساً. وأنا مسحوق فعلاً بما أرى.

مثل جميع الآخرين، تملكني الرعب إزاء هجمات 9/11. غير أنني لم أُفاجأ. كنت في قلب القاعدة لسنوات، وبالنسبة إلي بدت الهجمات نتائج حتمية لجميع القوى التي كنت قد شاهدتها دائبة على التطور والتنامي على امتداد تسعينيات القرن العشرين. لم يكن 9/11 أكثر من توسيع بالغ الإثارة للمنطق الشاذ والمنحرف الذي دأبتْ الجماعة الإسلامية المسلحة على توظيفه لتسويغ ذبح تلك الأعداد الكبيرة من الأبرياء في طول الجزائر وعرضها. كان هو نفسه منطق تفجيرات باريس، منطق نسف السفارات في إسلام أباد ونايروبي ودار السلام، وتفجيرات لندن بعد ذلك. إنه منطق مسلسل الإمداد: كل من يساعد العدو هدف مشروع. لم يعد للمدنيين أي وجود. الجميع في حالة حرب.

هذا بالتحديد هو منطق الجهاد الكوكبي، وأنا أحتقره. هناك جنود، وهناك مدنيون. قتل الجنود حرب، قتل المدنيين جريمة قتل. ليس هذا رأياً مجرداً. إنه ركن من أركان إيماني وعقيدتي.

لأكن واضحاً: أنا مسلم. إلى هذه الساعة أنا مستعد للذهاب إلى الحرب دفاعاً عن عقيدتي. لم أعد جاسوساً، غير أن جزءاً مني يبقى مجاهداً. أعتقد أن على الولايات المتحدة وسائر الأطراف الأخرى أن تنقلع من بلادنا، وأن تبقى بعيدة. أعتقد أن على هذه القوى أن تكف عن التدخل في سياسة الدول الإسلامية. أعتقد أن عليها أن تتركنا وشأننا. وإذا لم تفعل فإن من الواجب قتل عناصرها، لأن ذلك هو ما يحدث لجيوش الغزو والمحتلين.

أذهلني رد فعل الأمريكيين على 9/11. يا له من غضب استثنائي السذاجة، سذاجة لا أول لها ولا آخر: لقد هوجمنا في عقر دارنا، على التراب الأمريكي! ثلاثة آلاف شخص من الأمريكيين قُتلوا فوق التراب الأمريكي! مأساة لا شك. وجريمة. ولكن ماذا عن ملايين المسلمين المقتولين فوق الأراضي الإسلامية؟ في الشرق الأوسط، في أفريقيا، في البوسنة، في بلاد الشيشان، في أفغانستان. هل توقف الزمن بالنسبة إليهم؟

وبالتالي فأنا مؤمن بأن هناك معارك جديرة بأن تخاض. أعتقد أن هناك أرضاً جديرة بالموت في سبيلها. غير أنني مؤمن أيضاً بالقوانين. قد يكون الإسلام متفوقاً على الأديان الأخرى جميعاً، في امتلاك قوانين وشرائع واضحة حول كيفية الذهاب إلى الحرب. وقد اطلعت على هذه الشرائع في معسكرات التدريب الأفغانية. وتعلَّمْتُ هناك أن هذه الشرائع والقوانين هي التي تميزنا عن الأمريكيين والفرنسيين والألمان والروس والإنجليز وجميع الآخرين. هم يقتلون كيفما استطاعوا. هم يُسقطون القنابل النووية على المدن ويقتلون الملايين في أفران الغاز ويبيدون كتل سكانية كاملة للسطو على أراضيهم وثرواتهم. هم يقتلون النساء والأطفال، ثم يلوون شفاههم واصفين ما حدث بـ 'أضرار جانبية.'

هذه حقائق. هم دأبوا على اقترافها قروناً. أما نحن فمسلمون، ويأمرنا القرآن بألا نفعل. ذلك هو الإسلام الحقيقي الصحيح، الإسلام الذي تعلمته في المعسكرات - أقله نظرياً. كثيراً، وكثيراً جداً، ما كان ما كنت أراه في الممارسة العملية شيئاً مختلفاً تماماً.

ذلك هو ما دفعني إلى رواية قصتي. لم أروها رغبة مني في إنقاذ الغرب من الإرهابيين. لم يسبق لذلك قط أن كان هدفي. ما أتطلع إليه أكثر من أي شيء آخر هو إنقاذ الإسلام من جملة هذه التجاوزات والبدع المرعبة.

منذ البدايات الأولى، أزعجني رشاش العوزي. أزعجني واقع أن العالم الإسلامي انحدر إلى درك الاضطرار لخوض حروبنا بأسلحة أعدائنا. غير أن شيئاً أسوأ بكثير يحصل الآن: إننا نخوض حروبنا مستخدمين تكتيكات أعدائنا. إذا سمحنا لنفسنا، بوصفنا مسلمين، بأن نصبح مثلهم - أي مثلكم أنتم - فلن يبقى شيء جدير بالقتال دفاعاً عنه.

هذا هو جهادي أنا.

obeikandl.com

كلمات شكر

أشكر الله على حمايته لي عبر جميع التجارب التي وَصفْتُها في هذا الكتاب.

أشكر زوجي من أعماق قلبي على ثقتها بي، وعلى دعمها وتشجيعها طوال الفترة التي قضيتها عاكفاً على تأليف هذا الكتاب. وأكثر من أي شيء آخر، أشكرها على الجرأة الهائلة التي تحلت بها حين أقدمت على الزواج مني، كما على الشجاعة التي أبدتها عبر البقاء بجانبي يومياً منذ الزواج.

أشكر لارا هايمرت، محررة كتابي في دار بيسِكْ بوكس للنشر، على إيمانها بي، كما على طاقتها ونشاطها وهي تساعدني على إخراج هذا الكتاب إلى النور، إلى العالم.

أخيراً، أشكر قرائي على تمكيني من تقاسم قصتي معهم.

❋ ❋

obeikandl.com

obeikandl.com

تعريفات

باساييف، شامل سَلْمانوفيتش: في 1991 نجح باساييف، نائب رئيس الحكومة الانفصالية لجمهورية إتشكيريا الشيشانية، فيلفت أنظار العالم كله، حين اختطف طائرة ركاب نفاثة روسية من أجل رفع مستوى الوعي بالقضية الشيشانية. وخلال الحربين الشيشانيتين الأولى والثانية (1994 - 1996 و1999)، أعلن باساييف مسؤوليته عن عدد غير قليل من العمليات الإرهابية والعسكرية. اشتملت إحداها على أخذ ألف ومئتي شخص من مستشفى بلدة روسية جنوبية خلال صيف 1995، رهائن. كذلك ادعى المسؤولية عن حصار المسرح الموسكوفي في 2002، ومذبحة مدرسة بيسلان في 2004 التي قُتل فيها 350 شخصاً - أكثرهم من الأطفال. ثمة سلطات روسية زعمت أن باساييف مرتبط بالقاعدة، وهي تهمة أنكرها باساييف. نجحت قوات الأمن الروسية في تصفية باساييف في تموز/يوليو 2006.

بوتو، بناظير: رئيسة وزراء الباكستان مرتين: 1998 - 1990 و1993 - 1996. والدها ذو الفقار علي بوتو كان رئيساً للوزارة الباكستانية من 1971 إلى 1977. ولدى قيام نظام ضياء الحق العسكري في 1979 بإعدامه، تولت بناظير بوتو رئاسة حزبه السياسي المعروف باسم حزب الشعب الباكستاني. تمت الإطاحة بحكومتها الائتلافية في 1990 جراء تهم الفساد، ولكن بوتو ما لبثت أن عادت إلى السلطة في 1993. وخلال الفترة الثانية حاولت، دون نجاح، محاربة

صعود التطرف الإسلامي في الباكستان. مرة أخرى، تحت وابل من تهم الفساد وسوء الإدارة جرى إبعاد حكومتها عن مواقع السلطة في تشرين الثاني/نوفمبر 1996.

تحالف الشمال: بوصفه جماعة جهادية مؤلفة من ثلاث فئات عرقية غير باشتونية - طاجيكية، أوزبيكية وهازارية - أساساً، نجح تحالف الشمال في انتزاع السلطة من نجيب الله بعد انهيار حكومة الأخير في 1992. وفي حزيران/يونيو 1992، أصبح برهان الدين رباني رئيساً لجمهورية أفغانستان، غير أن حكومته وقواتها العسكرية - بقيادة أحمد شاه مسعود - لم تكن تسيطر إلا على أجزاء من البلاد في أي وقت محدد. ومع استمرار سُعار الحرب الأهلية اضطرت حكومة رباني لخوض سلسلة من المعارك ضد حشد من أمراء الحرب في طول البلاد وعرضها. والحزب الإسلامي بقيادة غلب الدين حكمتيار أثبت أنه استثنائي الجبروت.

نجحت حركة الطالبان في إطاحة تحالف الشمال سنة 1996، الذي ما لبث أن أعاد تجميع حركة مقاومة. بقي التحالف مسيطراً على عدد غير قليل من الأقاليم في الجزء الشمالي من أفغانستان بين عامي 1996 و2001. وبعد 9/11، بادرت القوات الأمريكية إلى التحالف مع تحالف الشمال ممكِّنَةً إياه من استعادة كابول. إن رباني، الذي كان قد حظي باعتراف العديد من البلدان بوصفه الرئيس الشرعي لأفغانستان طوال فترة حكم الطالبان، أعلن نفسه رئيساً للدولة في تشرين الثاني/نوفمبر 2001. وفي كانون الأول/ديسمبر 2001 سلّم مقاليد السلطة إلى الحكومة الانتقالية المشكلة بقيادة حميد قرة ضاي. (انظر أيضاً أبواب: أحمد شاه مسعود؛ الطالبان؛ محمد نجيب الله).

توش، علي: كان توش الذي عَدَّتْه السلطات الجزائرية المسؤول الأول الأوروبي في الجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) أحد المتهمين بتدبير التفجيرات

في فرنسا خلال صيف 1995. في وقتٍ لاحق من ذلك العام قامت الشرطة الفرنسية بتوقيف أربعين حركياً مشبوهاً، ولكن توش نفسه تمكن من مراوغة الاعتقال. وفي 1998 حوكم توش غيابياً على دوره في تفجيرات متروباريس. خلال المحاكمة، أعلنت السلطات الجزائرية في بيان لاحق أن الشرطة كانت قد قتلت توش في أيار/مايو 1997. لم يتم إبراز جثته دليلاً قط؛ إلا أن السلطات الجزائرية أرسلت إلى الفرنسيين مجموعة من البصمات بدلاً من ذلك. وعلى الرغم من أن الشرطة الفرنسية قالت إن البصمات مطابقة لأخرى على أوراق في ملف توش، فإن رئيس جلسة المحكمة في 1998 حكم عليه غيابياً بالسجن لمدة عشر سنوات (انظر أيضاً بابَيّ: الحرب الأهلية الجزائرية؛ الجماعة الإسلامية المسلحة).

الجماعة الإسلامية المسلحة (GIA): جماعة إسلامية كفاحية تشكلت غداة إلغاء الانتخابات في الجزائر. أجهزت الجماعة على الآلاف من المدنيين الجزائريين ذبحاً خلال ما باتت تُعرف باسم الحرب الأهلية الجزائرية. خلال هذه الفترة، كان يُعتقد بأن فرنسا تعاونت مع النظام العسكري الجزائري. رداً على ذلك كما على احتلال فرنسا الاستعماري السابق للجزائر، بادرت الجماعة إلى توسيع دائرة عملياتها ومدها إلى فرنسا أواسط تسعينيات القرن العشرين. أقدمت الجماعة على اختطاف إحدى طائرات الخطوط الجوية الفرنسية في 1994، وأعلنت مسؤوليتها عن سلسلة طويلة من الأعمال الإرهابية، ولاسيما سلسلة من التفجيرات في فرنسا خلال صيف 1995. وبعد أن جرى في 1999 اعتماد اتفاق مصالحة عامة، بدأت الهجمات تتضاءل. في 2004 تم اعتقال رئيس الجماعة نور الدين بوضيافي وإعلان حل الجماعة (انظر أيضاً باب: الحرب الأهلية الجزائرية).

جماعة التبليغ: حركة إسلامية جماهيرية (قاعدية) أسسها في الهند سنة 1926 الباحث الديني مولانا محمد إلياس، أتباعها في العالم الإسلامي والغرب

يُعدُّون بالملايين. والتسمية تعني بالعربية "جماعة تقوم بالدعوة إلى العقيدة". يُشجع الأتباع على تكريس الوقت والمال على الرحلات (الخروج) بحثاً عن المعرفة الدينية والدعوة إلى العقيدة بين صفوف المسلمين الضالّين في الغالب. ومع أن الجماعة تدعي بأنها لا سياسية وبعيدة عن العنف، فإنها قد تعرضت خلال العقد الأخير لنوع من المساءلة والتمحيص جراء ارتباطاتها بفعاليات إرهابية. ففي تشرين الأول/أكتوبر 1995، كانت مجموعة من عسكريي التبليغ في الجيش الباكستاني ذات علاقة بمؤامرة لإطاحة رئيسة الوزراء بناظير بوتو. وفي تاريخ أقرب عُرف أن العديد من المتهمين بمؤامرة تفجير سلسلة من الطائرات المقلّعة من مطار هيثرو البريطاني إلى الولايات المتحدة كانوا على علاقة بالتبليغ. بقيت الجماعة شديدة الإصرار على إنكار أي علاقة لها بالنشاط الإرهابي.

جهاز أمن الدولة Sûrete de l'Etat: جهاز مدني بلجيكي تابع لوزارة العدل.

الحرب الأهلية الجزائرية: نزاعات دامية أجهزت على الأخضر واليابس في الجزائر منذ عام 1992 إلى حين صدور إعلان عفو في 1999. وهي معروفة أيضاً باسم "الحرب القذرة" Le sale guerre، يقال إنها أزهقت أرواح ما يتراوح بين 100،000 و150،000 نسمة. في 1989 أقدمت جبهة التحرير الوطنية الحاكمة (FLN) على رفع حظر كان مفروضاً على تشكيل الأحزاب السياسية الجديدة. ثم جاءت انتخابات برلمانية في 1991، وفازت جبهة الإنقاذ الإسلامية (FIS) بأكثرية المقاعد في الجولة الأولى. خوفاً من انتصار إسلامي في الجولة الثانية، بادرت الحكومة إلى إلغاء الانتخابات في 1992. كذلك قامت بحظر نشاط جبهة الإنقاذ، واعتقال الآلاف من أعضائها. واصلت جبهة الإنقاذ الضغط مطالبة بانتخابات جديدة، في حين برزت جماعة منشقة أكثر تطرفاً باسم الجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) على الساحة مطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية. مدعومة بأعداد كبيرة من المجاهدين الذين كانوا قد شاركوا من قبل

في القتال ضد الاحتلال السوفيتي لأفغانستان، زادت الجماعة من أساليبها القائمة على العنف باطراد على امتداد عقد التسعينيات. وفي تضاد مع كل من الحكومة العسكرية من ناحية وجبهة الإنقاذ من ناحيةٍ ثانية، راحت الجماعة تزرع الرعب في قلوب المدنيين من خلال ذبح عائلات كاملة، بل قرى بأسرها إذا ما تم الاشتباه بتعامل شخص واحد منها إما مع الحكومة أو مع جبهة الإنقاذ. غير أن الحكومة وقواتها الأمنية ربما كانت مسؤولة جزئياً عن بعض العنف. لقد تكرر اتهامها باختراق صفوف الجماعة واقتراف هجمات بهدف إضعاف الدعم الشعبي لهذه الجماعة (انظر أيضاً باب: الجماعة الإسلامية المسلحة).

حزبي إسلامي: (انظر باب: غلب الدين حكمتيار).

حكمتيار، غلب الدين: أمير حرب باشتوني ومؤسس جماعة حزبي إسلامي مجاهدين الإسلامية. جهوده العسكرية ساهمت في وضع حد للاحتلال السوفييتي ولكنه رفض المشاركة في حكومة المجاهدين التي تشكلت بعد إطاحة محمد نجيب الله في 1992 بذريعة لا إسلاميتها. وخلال الفترة الممتدة من 1992 إلى 1996، ظلت قواته تقاتل من اجل الاستيلاء على كابول وتأسيس حكومة إسلامية أصولية في أفغانستان. وافق على تولي منصب رئيس الوزراء في ظل رباني مرتين - مرة في 1992 وأخرى في 1993 - ولكن الاتفاقين، في المناسبتين كلتيهما، ما لبثا أن انهارا بسرعة وبادر حكمتيار إلى استئناف العمليات القتالية. صحيح أنه قَبِل رئاسة الوزارة في حزيران/يونيو 1996، غير أن المصالحة بين حكمتيار وحكومة رباني لم تدم سوى ثلاثة أشهر إذ انتهت مع استيلاء الطالبان على كابول (انظر أيضاً أبواب: تحالف الشمال؛ أحمد شاه مسعود؛ برهان الدين رباني؛ حزبي إسلامي).

حمزة، أبو: أحد أئمة جامع فينزبوري بارك اللندني إلى أن اعتُقل في 2004. هاجر أبو حمزة من مصر إلى المملكة المتحدة في 1979. وفي 1987

التقى عبد الله عزام الذي أقنعه بالسفر إلى أفغانستان لمساعدة المجاهدين. وفي 1995، ذهب إلى البوسنة لدعم مسلمي البوسنة. وبعد قدومه إلى فينزبوري بارك أواخر 1996، نجح في الاستيلاء على الجامع في آذار/مارس 1997. اعتقله البريطانيون في لندن سنة 2004 بعد أن طالبت الولايات المتحدة، التي كانت قد اتهمته بإقامة معسكرات للتدريب في أمريكا، بترحيله إليها. دين في لندن في شباط/فبراير 2006 بتهم منها الحض على القتل وإثارة الأحقاد العنصرية. حُكم بالسجن لمدة سبع سنوات.

الخدمات، مكتب: انظر باب: عبد الله عزام.

خضر، أحمد سعيد: مواطن مصري هاجر إلى كندا في 1997. وفي ثمانينيات القرن الماضي كان يعمل مع هيئة الإغاثة الإسلامية الدولية (HCI) التي تتخذ من أوتاوا مقراً لها. وكجزء من عمله مع الهيئة، كان خضر يسافر إلى الباكستان وأفغانستان لمساعدة اللاجئين النازحين جراء الغزو السوفييتي. التقى أسامة بن لادن للمرة الأولى في 1985. وفي عام 1995 اعتُقل خضر في الباكستان للاشتباه بتمويله هجوماً بسيارة ملغومة على السفارة المصرية بإسلام أباد الباكستانية تمخض عن قتل 18 شخصاً. أُطلق سراحه في 1996 بعد أن تدخل رئيس وزراء كندا جان كريتيان لصالحه. وفي تشرين الأول/أكتوبر 2003، قُتل خضر بصاروخ أطلقته إحدى طائرات الهليكوبتر في تبادل لإطلاق النار مع قوات الأمن الباكستانية على امتداد الحدود الباكستانية ـ الأفغانية.

الدي اس تي (DST) (إدارة الأمن الإقليمي الفرنسي): جهاز مستحدث في 1944 لـ 'مكافحة النشاطات التجسسية وضد فعاليات القوى الغربية على الأراضي الخاضعة للسيادة الفرنسية'.

الدي جي اس إي (DGSE) (الإدارة العامة للأمن الخارجي) جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي): جهاز تابع لوزارة الدفاع ومسؤول عن

الاستخبارات العسكرية إضافةً إلى المعلومات الاستراتيجية، الاستخبارات الإلكترونية، ومكافحة التجسس خارج الحدود الفرنسية.

رباني، برهان الدين: تَمَّتْ الإطاحة برئيس الجمهورية الأفغانية رباني منذ 1992 مع سيطرة حركة الطالبان على كابول في 1996. غير أن الأمم المتحدة بقيت تعترف به رئيساً للجمهورية حتى كانون الأول/ديسمبر 2001، حين قام بتسليم منصبه إلى حميد قرة ضاي. (انظر أيضاً أبواب: أحمد شاه مسعود؛ غلب الدين حكمتيار؛ تحالف الشمال).

رمضا، رشيد: في تشرين الثاني/نوفمبر 1995، جرى توقيف رمضا الذي كان أحد محرري نشرة الأنصار الناطقة باسم الجماعة الإسلامية المسلحة في لندن بطلب من الحكومة الفرنسية. اتهمته إحدى المحاكم الفرنسية غيابياً بثلاث وعشرين قرينة جرمية ذات علاقة بتفجيرات متروباريس، بما فيها توفير الدعم اللوجستي للجماعة الإسلامية المسلحة الجزائرية ((GIAوالاضطلاع بدور الممول لها. ظل رمضا قابعاً في سجن بَلْمارش اللندني مدة عشر سنوات منتظراً تسليمه إلى فرنسا، الأمر الذي تم في كانون الأول/ديسمبر 2005. وقد دين في آذار/مارس 2006 وحُكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات. باقٍ هو في السجن ويواجه محاكمة ثانية بتهم قتل، والشروع في قتل، ضحايا تفجيرات 1990.

زبيدة، أبو: أحد كبار قادة القاعدة ومنظِّمها الرئيسي المجنِّد إلى حين اعتقاله في فيصل أباد الباكستانية يوم 2002/3/28. تولى إدارة شبكة التجنيد للقاعدة في طول العالم وعرضه لصالح معسكرات أسامة بن لادن التدريبية في أفغانستان، وقد حُكم عليه بالإعدام في الأردن لتخطيطه تفجير 'الألفية' الذي تم إحباطه والذي كان يستهدف نسف فندق راديسون بعمان. يعتقد الرسميون الأمريكيون أنه كان أيضاً على علاقة بمخططين مزعومين لمهاجمة سفارتي الولايات المتحدة في كل من سيراييفو وباريس.

الطالبان: حركة إسلامية أصولية انبثقت في أفغانستان عام 1994، واستولت على كابول في 1996 منتزعة إياها من حكومة برهان الدين رباني. وعبر تقديم الوعود بفرض النظام الاجتماعي ووضع حد للفساد في بلد مَزَّقَتْه الحرب الأهلية شر ممزق، نجحت حركة الطالبان في كسب الدعم المبدئي لذوي الأصل الباشتوني في الأجزاء الجنوبية من أفغانستان. ومع حلول عام 2000 كانت الحركة مسيطرة على جميع المناطق باستثناء الشمال الذي بقي خاضعاً لسيطرة تحالف الشمال. استثار نظام حكم الطالبان فيضاً من الانتقادات الدولية وسلسلة من عقوبات الأمم المتحدة جراء انتهاكاته لحقوق الإنسان، قيوده المفرطة في التشدد على النساء في الحياة العامة، وإصراره على إيواء إسلاميين إرهابيين، بمن فيهم أسامة بن لادن، ومساعدتهم. وفي تشرين الثاني/نوفمبر 2001، تمكَّنَتْ القوات الأمريكية بالتنسيق مع تحالف الشمال من إزاحة الطالبان عن السلطة، ولكن الجماعة ما لبثت أن عادت إلى الظهور بوصفها قوة مقاومة فعالة داخل أفغانستان.

عزام، عبد الله: اضطلع عبد الله عزام الذي يوصف بـ 'عَرّاب الجهاد' بدور حيوي في تطور التطرف الإسلامي المعاصر. فروايته للجهاد الإسلامي الشامل شكلت ركيزة إيديولوجية للقاعدة. وعزام المولود في الضفة الغربية سنة 1941، انتسب إلى الإخوان المسلمين الفلسطينيين في وقتٍ مبكر من حياته. حصل على شهادة الدكتوراه في الفقه الإسلامي من جامعة الأزهر في مصر. وخلال فترة الدراسة صادق عائلة سيد قطب الذي تأثر بكتاباته بعمق. كذلك أصبح قريباً من أيمن الظواهري الذي كان سيغدو فيما بعد الرجل الثاني في تنظيم بن لادن. لاحقاً، فيما كان يعمل محاضراً في جامعة الملك عبد العزيز في السعودية، كان بن لادن نفسه من طلابه.

بعيد الغزو السوفييتي لأفغانستان، بادر عزام إلى إصدار فتواه 'الدفاع عن

بلاد المسلمين التي طور فيها فكرة جهاد دفاعي وإلزامي إسلامي شامل ضد جميع الكفار الذين احتلوا أراضي الخلافة الإسلامية السابقة.

في 1984، أسس عزام مكتب الخدمات (MAK) بالتعاون مع تلميذه السابق أسامة بن لادن. ومكتب الخدمات هذا كان يؤدي وظيفة محطة استقبال ومركز تدريب للمجاهدين الجدد المجندين من البلدان الأجنبية. جال عزام على العالم - بما فيه ما يزيد على خمسين مدينة في الولايات المتحدة - بهدف التجنيد، جمع التبرعات، والدعوة إلى رؤيته للجهاد الكوكبي. يُعتقد أن عزاماً قام بتجنيد ما لا يقل عن عشرين ألفاً من المجاهدين من عشرين بلداً على امتداد ثمانينيات القرن الماضي.

مع وصول الحرب الأفغانية ضد روسيا إلى نهايتها، انشق عزام عن بن لادن. بقي متركزاً على فلسطين بوصفها قضية الجهاد الأهم بالنسبة إلى المسلمين، في حين أراد بن لادن خوض حرب ضد الولايات المتحدة وسائر البلدان الإسلامية العلمانية المختلفة التي كان مكتب الخدمات قد جند المجاهدين منها. في 1989، اغتيل عزام في بيشاور الباكستانية بسيارة مفخخة. ما لبث بن لادن أن استولى على مكتب الخدمات الذي أصبح مقر قيادة الجماعة التي كانت ستُعرف لاحقاً باسم القاعدة.

قتادة، أبو: كان أبو قتادة الموصوف بأنه القائد الروحي لتنظيم القاعدة في أوروبا متمركزاً في نادي الريشات الأربع للشباب في لندن. في كانون الأول/ديسمبر 2001، غاب عن الأنظار متخفياً عشية تحركات الحكومة البريطانية لاستحداث قوانين جديدة مضادة للإرهاب. تم العثور عليه واعتقاله بسبب ارتباطاته الإرهابية المزعومة في تشرين الأول/أكتوبر 2002. دين غيابياً مرتين بجرائم إرهابية في مسقط رأسه، الأردن. هو الآن قابع في سجن بَلْمارش اللندني، بانتظار الترحيل إلى الأردن.

قطب، سيد: باحث مصري بارز ومؤثر تُشكِّل أفكارُه جملة المنطلقات الفلسفية واللاهوتية (الفقهية) لدى العديد من الحركات الجهادية الحديثة. التحق قطب، أوائل الخمسينيات، بجماعة الإخوان المسلمين في مصر. وفي 1955 فرض الرئيس المصري جمال عبد الناصر حَظْراً على الجماعة وسجن عدداً كبيراً من أعضائه بمن فيهم قطب. كتب الأخير أهم مؤلفاته، بما فيها معالم في الطريق وفي ظلال القرآن، وهو في السجن. كان قطب عنيفاً في شجبه لنُظم الحكم العلمانية في البلدان الإسلامية، وبقي نصيراً ثابتاً للحكم وفقاً للشريعة. كان لمؤلفاته تأثير كبير وعميق في العديد من الإسلاميين بمن فيهم عبد الله عزام وأسامة بن لادن. أعدمه ناصر في 1966. (انظر أيضاً باب: عبد الله عزام).

الليبي، ابن الشيخ: تولى ابن الشيخ الليبي إدارة المعسكرات في تسعينيات القرن العشرين، وواصل النشاط إلى أن أصبح عضواً قيادياً في تنظيم القادة. بعد اعتقاله في تشرين الثاني/نوفمبر 2001 في الباكستان، أرسلته وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) إلى مصر للتحقيق في كانون الثاني/يناير 2002. وهناك أفاد في شهادته بأن العراق كان قد وفر لأعضاء من القاعدة فرصة التدرب على أسلحة كيميائية وبيولوجية. في شباط/فبراير 2002 وزعت وكالة استخبارات الدفاع (DIA) تصريحاته على الأجهزة الاستخباراتية، ولكنها أعلنت 'احتمال أن يكون الليبي متعمِّداً تضليل المستجوبين.' غير أن مزاعم الليبي تلك ما لبثت، على أي حال، أن وُظفت من قبيل رسميي إدارة بوش على صعيد توفير الذرائع لغزو العراق. ولعل التوظيف الأبرز تمثل بإشارة وزير الخارجية كولن باول إلى إفادات الليبي في خطاب له في شباط/فبراير 2003 أمام مجلس الأمن الدولي. في كانون الثاني/يناير 2004 أنكر الليبي مزاعمه، وفي شباط/فبراير 2004 قامت وكالة الاستخبارات المركزية بسحب جميع المزاعم المستندة إلى شهادة الليبي. في ربيع 2006 قيل إن الليبي سُلِّم إلى السلطات الليبية.

مسعود، أحمد شاه: قائد مجاهدين أفغاني في الحرب السوفيتية - الأفغانية. نجح جيش مسعود في الاستيلاء على كابول في 1992. وبعد انهيار حكومة نجيب الله، عُين مسعود وزيراً للدفاع من قبل رئيس الجمهورية الجديد برهان الدين رباني. بين عامي 1992 و1996 قاد مسعود قواته في معارك القتال ضد جماعات حاولت الإطاحة بحكومة رباني، بما فيها جماعتا حزب غلب الدين حكمتيار الإسلامي والطالبان. وفي 1996 تمكنت الأخيرة، الطالبان، من الاستيلاء على كابول، فانسحب مسعود ورباني إلى شمال أفغانستان حيث نشط تحالفهما الشمالي بوصفه حركة مقاومة لنظام الطالبان. اغتيل مسعود في 2001/9/9 بيد عملاء للقاعدة تنكروا كصحفيين. (انظر أيضاً أبواب: برهان الدين رباني؛ تحالف الشمال؛ غلب الدين حكمتيار؛ طارق المعروفي).

المصري، أبو خبب: هذا هو الاسم المستعار لمدحت المصري السيد عمر، صانع القنابل وخبير الأسلحة الكيميائية الرئيسي لدى تنظيم القاعدة وقد قُتل في 2006/1/13 في أثناء غارة جوية أمريكية في دامادولا الباكستانية. لا يُعرف إلا القليل عن خلفياته أو نشاطاته قبل أيار/مايو 1999، حين قام أيمن الظواهري بتعيينه مسؤولاً عن تطوير برنامج أسلحة غير تقليدية لصالح القاعدة.

المعروفي، طارق: بعد اعتقاله في مداهمات آذار/مارس 1995 ببلجيكا، جرى إطلاق سراح المعروفي بعد عام واحد فقط من السجن. واصل المعروفي النشاط فأصبح قائداً (ومؤسساً ربما) لجماعة القتال التونسية ((TCG، وهي منظمة مرتبطة بالقاعدة. يُزعم أنه عمل داعية ومجنِّداً لصالح القاعدة في أوروبا إلى أن اعتُقل في كانون الأول/ديسمبر 2001 ببلجيكا بتهمة تدبير جوازات سفر بلجيكية مزوَّرة للرجال الذين قاموا باغتيال أحمد شاه مسعود. حُكم عليه بالسجن لمدة ست سنوات.

ملوك، فريد: دين المواطن الفرنسي ذو الأصل الجزائري ملوك من قبل إحدى المحاكم الفرنسية في 1997 بجريمة توفير الدعم المادي للجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) بالارتباط مع تفجيرات مترو باريس في صيف 1995 وحُكم غيابياً بالسجن لمدة سبع سنوات. في 1998 قامت الشرطة البلجيكية بمداهمة بيت ملوك في بروكسل واعتقلته بعد تبادل لإطلاق النار دام اثنتي عشرة ساعة. وفي 1999 حُكم بالسجن لمدة تسع سنوات بجرائم محاولة القتل، حيازة الأسلحة النارية والمتفجرات، العصيان المسلح، التورط في نشاطات إجرامية، واستعمال أوراق ثبوتية شخصية مزورة. (انظر أيضاً بابَيْ: الجماعة الإسلامية المسلحة؛ الحرب الأهلية الجزائرية).

نجيب الله، محمد: رئيس جمهورية أفغانستان من 1986 إلى 1993. خلال الاحتلال السوفيتي، شغل نجيب الله منصب رئيس الشرطة السرية الأفغانية حيث ذاع صيت تشدده وقسوته في محاربة جماعات المقاومة الجهادية. واصلت روسيا تزويد حكومته بالدعم الاقتصادي والاستخباراتي بعد انسحاب القوات الروسية في 1989. بقي نجيب الله رئيساً للجمهورية إلى أن نجحت المقاومة الجهادية في احتلال كابول سنة 1992. أمضى السنوات الأربع التالية محتمياً بأحد مجمعات الأمم المتحدة، ولكنه ما لبث أن أُعدم من قبل نظام الطالبان في 1996.

* *